مقهى القرية وقهوة المدينة

اعتمادا للتقسيم المكاني الأثير للرواية العربية إلى روايات يتحدد فضاؤها بالقرية أو المدينة، فإن النوعين لا يبتعدان عن المقهى وإنما يأتي الاختلاف بينهما ليس نابعا من اختلاف النص ومشروعيته المكفولة للنص[1] وإنما من بعض السمات التي تبدو قانونا يحكم الوظيفة الفنية للمكان في الروايتين .

في رواية القرية يأتي المقهى منزاحا عن الحياة البشرية مبتعدا عن العمران ، ومن ثم يبرز الإيحاء بالعزلة التي يتصف بها الأشخاص الذين يرتادون المكان .

في "أيام الإنسان السبعة" يحركنا النص مع عبد العزيز متجها للمقهى ، ذلك المكان المنعزل التحتي : "انحرف في زقاق جانبي طويل مظلم تماما ، لا يرى طريقه ، ولكنه يسير حتى أحس بأن الزقاق انتهى ، مال ، عتبة الباب منخفضة جدا عن أرض الزقاق تحدر نازلا ، استند على سقف الباب بيده داخل وسط الدار ، مظلم تماما لا يرى شيئا ، تخبط في الظلام ، باب فيه شروخ تتفصد بضوء أبيض باهر .. دخل إلى المقهى"[2].

وهي صورة مع اقترابها من مقهى زقاق المدق فإنها تخالفها في العمق الذي يضمهما ، مقاهي محفوظ ومقاهي المدينة عموما توجد هناك في العمق محتلة مساحة جغرافية في قلب المدينة أو الحي الشعبي ، في الوقت الذي يكون فيه مقهى القرية دائما في الهامش تماما كأصحابه ورواده ، كما أن مقهى المدينة هادئ في الغالب لا تختلط فيه الأصوات وإن اختلطت المسافات بين البشر ، وهو ما يتضح عبر وصف الراوي للكرنك :

---

(١) نعنى بمشروعية الاختلاف، حق النص أن يكون خاصا ومختلفا عن غيره من النصوص فى مشروع الكاتب الواحد أو غيره من الأعمال الخاصة بالكتاب الآخرين .

(٢) عبد الحكيم قاسم : أيام الإنسان السبعة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٨ ، ص ٢٣٣ .

"القهوة فاخرة والماء نقي عذب والفنجان والكوب آيتان في النظافة ، عذوبة قرنفلة ، وقار الشيوخ ، حيوية الشباب ، جمال الفتاة وموقع المقهى في وسط المدينة الكبيرة يصلح استراحة لجوال مثلي وثمة عناق بين الماضى العذب والحاضر المجيد"[1].

إذا كان مقهى المدينة الهادئ تعويضا ، ووجها آخر لحياة المدينة الصاخبة في محاولة للخروج من دائرة افتراضية للملل تستشعره النفس الإنسانية في حاجتها الدائمة للتغيير ، والخروج من حالة الوتيرة الواحدة ، فإن مقهى القرية يأتي في صخبه مضادا لهدوء القرية وصمتها :

"غرفة صغيرة وقدة فى ضوء الكولوب والصياح والزياط والهياج ، حزمة من الحياة الصاخبة مدفونة تحت صمت القرية لكنها قوية ، انفسح له مكان بين رجلين دون أن تتردد الضجة المندفعة ، المذياع على آخره وصوت المطربة المسرسع يندفع في خط مواز لهيصة الجالسين"[2].

ولا يتوقف الأمر المضاد عند هذا الحد وإنما يتعداه إلى المساحة التي يحتلها كلاهما ، مقهى المدينة متسع على الرغم من ازدحام المدينة وضيق مساحتها أو المبانى التي تستهلك مساحتها :

" أما المقهى فمستطيلة من الداخل تتسع لمائتي شخص بالراحة ، والترابيزات العتيقة بعوارضها الخشبية الكالحة ، الطقاطيق الملتوية الأقدام المهيضة المفعصة ، الكراسى المصنوعة من الخشب والقش متساندة من فرط التهالك على الحوائط وعلى بعضها البعض ، كلها متناثرة هنا وهناك"[3].

ومقهى القرية مقارنة بفضاء الريف يبدو عشوائيا لم يخلق ليكون مقهى ، وإنما خلقته المصادفة ، ومن ثم تكون ملامحه أكثر وضوحا من ملامح أصحابه .

إن ملامح فاصلة يمكن قراءتها بعمق إذا ما توقفنا مدققين عند المقهى الشعبي بخاصة ومقهى المدينة بعامة من ناحية ومن ناحية أخرى عند مقهى القرية بما له من

(١) الكرنك ص ٤ . (٢) أيام الإنسان السبعة ص٢٣٤ .
(٣) خيري شلبي : أولنا ولد، دار الهلال، ص١٥ .

سمات فاصلة يعول النص كثيرا على توظيفها فنيا ، إلى الدرجة التي يصبح فيها المقهى في المكانين (القرية – المدينة) اختزالا لعالم دال يمثل حياة كاملة ليلية غالبا تتفتت خصوصيتها نهارا ، فالمقهى ليلا غيره نهارا ، والمقهى إنما جعله مرتعا للصوص والخارجين على القانون والممارسات غير الأخلاقية ، وهي صورة تجدها عند الكثيرين من الروائيين العرب .

obeikandl.com